الإرهاصات السيميائية في البلاغة العربية القديمة

الأستاذة: عالية زروقي

مخبر نظرية اللغة الوظيفية/ جامعة الشلف

مقدّمـــــــة:

يرتقي الباحث والناقد والأكاديمي عبد الملك مرتاض بكتاباته المتنوعة المجالات، وبحوثه الحيوية والجريئة في الطرح إلى مصاف المفكرين الكبار في العالم العربي، ويكاد يكون كتابه "في نظرية البلاغة- متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا" خلاصة جهود فكرية بلاغية لما هو مطروح في الساحة العربية من القديم إلى الحديث، دون استثناء الوافد من نظريات غربية مترجمة بمصطلحات ومفاهيم يشوب الغموض بعضها والاختلاف حولها.

ويشيد عبد الملك مرتاض بكتابه المذكور وينادي من خلاله ((بضرورة إعادة النظر في مفهوم البلاغة بتغيير مناهج التعليم العربي البدائية التي لا تزال تعلم الناشئة على طريقة عهود الانحطاط ليس إلا؟ إنّا ندعو إلى تقرير نصوص أدبية أنيقة رفيعة يمكن تنوير المتعلمين من خلال استيعابها وتذوقها، ومن ثم حفظها بملامح البلاغة ليَنسجوا عليها حين يكتبون أو حين يخطبون، لا أنهم يُمنَون بتعليم قواعد بلاغية تستشهد بأبيات مقتلعة من أصول قصائدها، وإقامة قواعد منحطّة عليها، تشبه قواعد النحو الصفراء))[i]، فهو بذلك يحاول التأسيس لقواعد تعليمية يمكن استيعابها والنسج على منوالها.

ولعل أهم طرح قدمه عبد الملك مرتاض في كتابه- المعني بالدراسة- ما تعلق بالبحث عن الأصول أو الإرهاصات البلاغية في السيميائيات المعاصرة، أو كما سماها في الفصل الثالث -من كتابه- الميراث البلاغي في المفاهيم السيميائية، حيث يقول عن هذه المسألة أنه ((لم نر أحدا تفطن لها – ولا نقول هذا من باب العجب والخيلاء- وهي اختلاف المصطلحات وتوحد المفاهيم، فتوقفنا لدى نماذج من تلك المفاهيم التي كانت في أصلها بلاغية، ثم استحالت سيميائية، دون وقوع التفطن إلى ذلك، أو الإيماء إليه من الباحثين، فكأنها نشأت كما آلت...))[ii]، وبذلك يوقفنا الباحث أمام جملة من القضايا السيميائية وأصولها البلاغية، وهو ما سنتطرق إليه عبر العناصر الثلاثة الأساسية من هذا البحث.

1/مفهوم الانزياح انطلاقا من العدول:

يشير العنوان الذي اقترحه الباحث إلى أن أصل مفهوم المصطلح السيميائي "الانزياح" يتحدد انطلاقا من المصطلح البلاغي العربي القديم "العدول" كمقابل له وفق ما قدمه عبد السلام المسدي[iii]، ومع ذلك لا نلتمس توضيحا من قبله عن معنى "العدول" في البلاغة العربية، ويكتفي بتقديم توضيحات عديدة حول مصطلح الانزياح وترجمته إلى العربية والاختلاف حولها، وغيرها من المفاهيم.

وقد استعمل البلاغيون العرب في القديم لفظ "العدول"، وهو المصطلح الذي روجه ابن الأثير (ت 638هـ): في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، إذ يقول ((أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها، وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا))[iv]، وبذلك يرجع العدول في أصله إلى علم البيان، لا يتفطن إليه إلا العارف بألفاظ اللغة المتمرس لتراكيبها النحوية والدلالية، ومن القدماء من كان يستعمل مصطلحي "التوسع" و"الاتساع"[v] كدليل على الانزياح، والاتساع: ((أن يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل على قدر قوى الناظم فيه، وبحسب ما تحتمله ألفاظه من المعاني))[vi]، وقد ((كان البلاغيون العرب ربما اصطنعوا هذا الإجراء في فهم النص أو تفهيمه حين يلاحظون خروج الكلام عن النظام الأسلوبي الرتيب، أي حين يلاحظون أن المتكلم انتهك حرمة نظام الكلام المألوف بين الناس، كاستعمال اسم الفعل مكان اسم المفعول على فعله وفاعله، أو الاستغناء بالمصدر عن فعله، وهلمّ جرا...))[vii]، وهذه إشارة من عبد الملك مرتاض في مقام آخر يُعيد فيه الأصول الأولى "للانزياح" إلى "العدول" المفهوم القديم في البلاغة العربية.

وعن مصطلح الانزياح باللغات اللاتينية ؛ الفرنسية والانجليزية، هو على التوالي: " L'écart " و" Gap"، أما في اللغة العربية، فتتعدد المصطلحات من انحراف إلى انتهاك، فجوة، الابتعاد. ، والتجانف، وهي مقابلات قدمها عبد الملك مرتاض وفق ما هو موجود في الساحة النقدية العربية، وإن كانت كلها تدل على مفهوم واحد إلا أن مرتاض يُبعد بعضها لعدم دلالته الصحيحة وفق المفهوم كما وضع، مثل "الفجوة" أو أنها لا ترقى أدبيا وجماليا ك"الابتعاد"، ومشيرا إلى ذلك إلى توحيد المصطلح،

وعدم ذكر المترادفات، أو –كما يسميها –الضرائر والغريمات لأنها تظلل الباحث أكثر مما تهديه، ويعتقد أن أسلم هذه المصطلحات وأكثرها دلالة وأسلمها لغة ومعرفة هو مصطلح "الانزياح" [viii] .

ويعتبر مرتاض أن مفهوم مصطلح الانزياح ((في غاية الغموض شأنه شأن كثير من المفاهيم اللسانية والسيميائية الجديدة، التي يبدو كأن التسرع وقع في تبنيها، ثم تبين أنها لا تقدم شيئا كثيرا للدرس الأسلوبي))[ix]، ولكن هذا لا يعني أن نمتنع عن الاهتمام به وتتبع مفهومه.

وقد تطرق لظاهرة الانزياح في الغرب كل من غريماس وكورتيس، وإن لم يقدما كبير شيء عن ((هذا المفهوم البلاغي الأسلوبي في أصله، السيميائي في أيلولته))[x]، في حين أن أوزوالد ديكرو، وجان ماري سشيفر، هما اللذان عالجاه بتفصيل ووضوح ذهن وغزارة معرفة، إذ جعلا الانزياح أنواعا متعددة: بلاغي، نحوي، وصفي وأسلوبي، وبذلك تم الارتقاء بهذا المفهوم إلى مستوى النظرية، ويعتبر الباحث أن أهمها الأسلوبي ((لأنه هو الذي له صلة باستعمال اللغة وتوظيفها في جمالية الإرسال ليس ضمن تركيب ألفاظ اللغة في جمل فحسب، ولكن ضمن بناء الجمل نفسها، في نسج الأسلوب الأدبي، والسعي إلى تخليصه من الرتابة والسكوت، إلى الحركة والتوتر))[xi]، ويقدم الباحث إثر ذلك تعريفين للانزياح من معجمي **روبير** و **لاروس** حيث ورد في الأول أنه ((فعل الخطاب الذي ينزاح عن المعيار))، أما في الثاني فهو انزياح اللغة، وهو الكلمة التي تخرق السلوك المتفق عليه في الاستعمال بين الناس.[xii]

أما الانزياح الأسلوبي Une stylistique de l’écart – حسب ما قدمه مرتاض– فهو ((الذي يعادل الأسلوب الأدبي الذي يتميز بالخصوصية، و يتجانف عن المألوف المبتذل القائم على التقليد والمحاكاة ضمن نظام اللغة العام، في أي لسان من الألسن، ذلك بأن الأسلوب الأدبي، بما هو خاصية فردانية، لم يجنح نحو الخروج عن المعايير الجمعانية))[xiii]، فالانزياح هو الصفة الأسلوبية التي تجعل لغة كاتب ما ذات خصوصية في إطار النظام العام للسان الذي تنتمي إليه اللغة، أي أن الانزياح يأتي ليكرس ثقافة التعبير الأسلوبي، ما يحدث فيه من انحراف مفاجئ لم يكن المتلقي في الغالب ينتظر أن يقع، إذ يأتي ليكسر الرتابة الأسلوبية فيكون انتباه المتلقي غابرا في طريق جمالي معين عبر تلك الرتابة، وسرعان ما يأتي تعبير آخر ينزاح به عن المألوف والمتوقع، فهذا الخرق الذي وقع في نظام المعيار اللغوي، أو هذا الاختلاف الذي اعترى الرتابة الأسلوبية هو ما جعلها تخرج من المألوف والمنتظر[xiv]

ويخلص مرتاض إلى أن الانزياح ينقل ((الكلام من نظام اللسان الصارم إلى نظام اللغة المفتوح، ومن الدلالة المعجمية المتوارثة للغة، إلى الدلالة الأدبية التي جعلت الكلام يتفرد ولا يتعدد، ويتقيد ولا يتبدد))[xv]، فللانزياح تبعا لذلك مزية التعدد في الاستعمالات اللغوية الموجودة إلى استعمالات ممكنة تفتح اللغة وتزيد من اتساعها بدوالها ومدلولاتها.

2/مفهوم التداولية انطلاقا من "معنى المعنى":

يحاول عبد الملك مرتاض من خلال هذا المبحث الرجوع بالتداولية كمفهوم سيميائي حديث إلى البلاغة العربية القديمة، حيث فتش بين ثنايا الكتب البلاغية التي قدمها أجدادنا، لاسيما كتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني فيما يعرف بنظرية معنى المعنى[xvi]، وإن كنا نجد مرتاض موضحا للمفهوم الحديث "التداولية"، مغيبا للمقابل الذي يرجع أصولها إليه "معنى المعنى".

ونظرية معنى المعنى قد وردت بالتحديد في كتاب دلائل الإعجاز ضمن نظرية النظم، حيث نلفيه يجعل ((الكلام على ضربين: ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، لكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل...))[xvii]، وبهذا القول يكون عبد القاهر الجرجاني قد لفت انتباه القارئ إلى وجود نوعين من الكلام، أحدهما يتضمن معنى عاما متواضعا عليه يفهم من دلالة اللفظ وحده، يسمى المعنى المباشر أو من الدرجة الصفر، وثانيهما ينضاف فيه إلى المعنى الأول معنى آخر يرتبط بمقام التخاطب وظروف إنتاجه، وهو ما يظهر فيما سماه معنى المعنى، مما يعني حصول تأويل من طرف المخاطَب من أجل إدراك سيرورة المعنى في الملفوظ .

وعن التداولية تُلفي عبد الملك مرتاض يشير إلى الغموض الكبير الذي يعتريها لتعدد المفاهيم المنبثقة عن النظريات الغربية، ويرى أن أصل المصطلح يعود إلى ((اللغتين الإغريقية Pragmatikos واللاتينية بالمعنى القانوني Pragmatika sanctio، وللهذا المفهوم في الثقافة الغربية عدة استعمالات: قانونية، وهو الاستعمال الأصل فيما يبدو، ثم فلسفية ومنطقية ورياضياتية، ثم أخيرا لسانياتية (دلالية)، وبلاغية (سياقية)، وسيميائية (تأويلية)))[xviii]، وأن شارل موريس هو من زعم لأول مرة عام 1938م، أن ((التعريفات الكلاسيكية للسمات تحتوي مرجعية ثابتة للمؤول والتأويل، وإن البلاغة الإغريقية واللاتينية،

وكل النظريات اللسانياتية للسفسطائيين يمكن الإقرار بأنها أشكال تداولية للخطاب))[xix]، فهو يعتبر أن كل النظريات القديمة لا تخرج عن الإطار العام للتداولية.

وقد نشأ مفهوم التداولية في أمريكا الشمالية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مع بيرس، ووليام جيمس. أما عند العرب فلا يعرف بالتحديد من اصطنع المفهوم من اللغويين العرب نقلا عن المفكرين الأمريكيين، ولا كيف تم الاهتداء إلى اختيار هذا المصطلح ((الذي يدل من الوجهة المعجمية على التعاور على شيء وأخذه بالدُّوَل، بحيث يقع التداول عليه: مرة يأخذه هذا من ذاك، ومرة يأخذه ذاك من هذا...ويستعمل هذا التركيب اللغوي في العاميات العربية بوجه صحيح إلى يومنا هذا...))[xx]، فمصطلح التدوالية يعبر عن المفهوم المبتغى حسب مرتاض وغيره من النقاد، وإن كان يقترح مصطلح "التداول" على تداول اللغة دون اللاحقة "ية"[xxi]، إذ أن ما يستعمله النقاد –حسب رأيه–يدل على المفهوم المنصرف إلى النزعة المذهبية. ومع هذا فإنه يرى أن الشائع هو التداولية ولا مناص من تغييره حتى لا يزيد الطين بلة.

ويتبين للباحث بعد الاطلاع الحثيث على كتب النقد الجديد أنه يوجد اختلاف شديد في تمثل هذا المفهوم ووظيفته، حيث يرى أن بعض المنظرين ((يجعل منه ركنا مكينا في تحليل النص أو الخطاب، ومنهم من يجعل منه مجرد مجموعة من نفايات الكلام، يقع بها الترقيع، ومنهم من يبسّطه إلى أن يبلغ به مستوى مفهوم "السياق" المعروف في البلاغة منذ عهد أرسطو مرورا بالبلاغة العربية في عهودها الزاهرة، في حين أن منهم من يعقّد من أمره، ويعمّق من شأنه، إلى أن يُخضع استعماله في تحليل المعنى، فيُلحقه بالأدوات السيميائية الجديدة، بل منهم من يبلغ به مستوى المنطق باعتبار أن هذا المفهوم هو في أصله من متصورات العالم المنطقي شارل بيرس))[xxii]، وبهذا يتطرق مرتاض للاختلاف القائم بين المنظريين الغربيين والذي يتمثل بالدرجة الأولى في المبدأ الذي يؤمن به المنظر من جهة ، والمجال الذي يبحث فيه من جهة أخرى، وهي اختلافات حول خصوصية الدرس، وإن كانت كلها تنطوي حول مفهوم عام واحد.

البراغماتية وتحليل الخطاب:

يعتقد عبد الملك مرتاض أن أعمال العالم الأنثروبولوجي البريطاني البولندي الأصل "مالينوفسكي" تعدّ المنطلق لأبحاث اللسانياتين حول العلاقة المتبادلة بين اللغة والمجتمع، وكذا الأساس للأبحاث التي أجريت عن بنية الكلمة ووظيفتها باعتبار هذا العالم هو المؤسس للوظيفة التداولية للغة في المجتمعات

البدائية (بالتناقض مع الوظيفة المرجعية التي كان اللسانياتيون يؤثروها بعنايتهم...)، وتطورت بعد ذلك مصاحبة مع تطور فلسفة اللغة العادية التي بلورها أوستان في أعماله انطلاقا من بحوث مالينوفسكي نفسه[xxiii].

ويشير مرتاض إلى أن زاسلافسكي أثار ((مسألتين مركزيتين في مقالة كتبها في الموسوعة العالمية يجري نقاشهما في فلسفة اللغة وما له صلة بالتحكم في معاني الألفاظ وتحليل الملافظ وإدراك أبعادها الدلالية))[xxiv] ، تتمثل الأولى في "مسألة فاعلية أو انجازية بعض الأفعال في اللغة المستعملة" يصل من خلالها مرتاض إلى ((أن قدرة التداولية على التدخل في إثراء معاني الكلام، والذهاب في تأويل المسكوت عنه هي من الغنى والسعة ما يثري الخطاب بتمكينه من إثمار قراءات لم تكن دلالة اللغة البسيطة تحتملها))[xxv]، والثانية هي مسألة "المرجعية": ((وتعني أن اللفظ كذا يحدد الشيء كذا للعالم الخارجي، أو يحيل عليه))[xxvi]، ويرى مرتاض أن هذه المسألة تبوأت مكانة مهمة في فلسفة اللغة ثم في اللسانيات، وأن المشاكل التي قد تعتري هذه المسألة بما فيها المنطقية واللسانية والفلسفية، تجعل منها حقلا واسعا يعني كل الباحثين من مختلف المجالات[xxvii]. ويخلص الباحث إلى أن التداولية ليست إلا منهجا من أجل تقرير دلالة الألفاظ الغربية والمفاهيم المجردة حسب ما حدده بيرس[xxviii].

ويتواجد هذا المصطلح منذ القدم عند البلاغيين القدماء العرب واليونانيين فيما يعرف ب**السياق** أو ما في حكمه، أو ما يسميه السكاكي **بمقتضى الحال**، ((غير أن الأقدمين لم يتعمقوا في بحثه والذهاب به إلى أبعد الحدود الممكنة في انتشار التأوّلات وما يمكن أن تنبثق عنه، واتخاذه إجراء في تحليل الملافظ التي هي وحدات صغرى للخطاب، وقراءة النص عبر حقل التأويلية الشاسع الأطراف))[xxix]، فهو بذلك يرجع التداولية في إطارها العام إلى مفهومي السياق، ومقتضى الحال.

ومن أهم ما توصل إليه الباحثون في حقل التداولية، أنها ((متذبذبة بين فرط الشرف الرفيع الذي تطمح أن تستأثر به، وفرط التدني الذي لا تود أن تقع فيه))[xxx]، حسب ما قدمه فرنسيس جاك، في حين يرى جان ماري شيفر ودكرو أن ((إجراءات التداولية تعنى أساسا بفهم الجملة الواحدة من الكلام فتذهب في البحث عن طبيعة وضعها انطلاقا من العناصر المعجمية إلى المؤشرات النمطية أو المعطيات السياقية))[xxxi].

ويشيد الباحث بما قدمته **كاترين كربراط- أوريتشيوني** في كتابها "التلفيظ" L'énonciation بحديثها عن البعد الثلاثي لمفهوم التداولية، والذي ((لايقوم إلا بالباث والمستقبل، ووضع التبليغ بينهما (situation de la communication)، وأثارت خصوصا عن هذا المفهوم ما أطلقت عليه "المسكوت عنه" (Illocutoire) في ظاهر اللغة، ونسج الكلام))[xxxii]. ويتعرض لحديث **رولان بارث** عن مسألة تداولية اللغة وتحليل الخطاب، والذي يرى أن العبارات الطلبية يمكن أن تتحول إلى عبارات خبرية لكن دون أن تفقد طبيعتها الطلبية[xxxiii]، أما **أوستان** فقد حاول تصنيف أفعال الكلمة في الملفظ من حيث هي في أي لغة من اللغات، إذ أن أي أحد ينطق بجملة لا بد أن ينجز ثلاثة أفعال متزامنة، تتمثل في: الفعل الصيغي Acte locutoire، الفعل المسكوت عنه Acte illocutoire، فعل الصيغة المشبعة Acte perlocutoire[xxxiv].

وقد ذهب **دكرو** و **شيفر** من أن الأبحاث والنظريات الكثيرة من أعمال المناطقة الوضعيين الجدد تميز بين ثلاث وجهات نظر ممكنة عن وضع اللغات:

1- وجهة النظر القائمة على النظام النحوي والتي يقوم على تحديد القواعد التي تتيح تركيب الجمل والصيغ السليمة.
2- علم الدلالة الذي يسعى إلى تقديم وسيلة يقع بها تأويل هذه الجمل أو الصيغ.
3- تداولية اللغة التي تصف استعمال صيغ المتخاطبين، ساعية إلى أن يقع تأثير هؤلاء في أولئك[xxxv].

وبين هذه المستويات الثلاثة يوجد نظام صارم يحكم علاقة بعضها ببعض، فكلا ينهض بوظيفة بناء الذي يليه

ولكن ليس العكس.

وفي آخر المبحث يقدم عبد الملك مرتاض نتيجة مفادها ((أن تداولية اللغة أدخل في أدوات الإجراءات التأويلية بحيث أن الكلمة التي تقال يراد منها أكثر من معنى، وغالبا ما يراد بها المعنى الوارد في ظاهر الكلام، أو يتخذ الكلام الوارد على الأقل قابلية تأويلية لتوليد كلام مسكوت عنه، فكأن مبدأ المسكوت عنه هو مفتاح التداولية اللغوية بالمفهوم المبسط، ومثل هذه الخاصية التي تتمتع بها هذه النظرية تجعل منها أداة شديدة الفعالية لاستكشاف حقول من القراءة لا تنتهي حدودها، ولا تنغلق

آفاقها))[xxxvi]، وبذلك تدخل التداولية في إطار الأدوات الإجرائية التأويلية للمعاني التي يحملها الكلام الظاهر، فينفتح آفاق هذا الأخير على العديد من المعاني التي تكون ضمن المسكوت عنه، فالتداولية حسب مرتاض أصلها نظرية معنى المعنى، التي سبق وأن تطرقنا لمفهومها عند عبد القاهر الجرجاني، وإن كانت هذه الأخيرة فقيرة إلى منهج دقيق يحدد معالمها، على العكس مما هي عليه التداولية اليوم إذ أشبعت بحثا وتحليلا.

3/ مفهوم الأسلوبية انطلاقا من البديع:

وفي هذا المبحث –وعلى خلاف ما سبق– نُلفي عبد الملك مرتاض يعرّج في البداية على علم البديع كمفهوم بلاغي قديم يُحدد لنا المقصود بالأسلوبية كمفهوم سيميائي حديث (على اعتبار مرتاض نفسه). ويرى بذلك أن مؤسس علم البديع في العربية هو أبو العباس عبد الله بن المعتز ضمن كتابه المشهور "البديع"، وإن كان يعتبره غير قائم على خلفية نظرية عميقة، وإنما كان ذلك بحكم ريادته في بابه، بتقديمه لكل ضرب بلاغي بتعريف بسيط، أو عدم ذكر التعريف أو التمهيد[xxxvii]، فقدّم بذلك ثمانية عشر ضربا من ضروب البديع، وجاء بعده آخرون زادوا عليها وتكلفوا فيها، إذ بلغت عند قدامة بن جعفر ثلاثين ضربا، وعند أبي هلال العسكري سبعة وثلاثين، ومثله ابن رشيق المسليّ القيرواني، ووصلت عند صفي الدين الحليّ زهاء مائة وأربعين ضربا.

وعلم البديع كما جاء في كتاب علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي ((هو علم تعرف به الوجوه والمزايا التي تُكسب الكلام حسنا وقبولا بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال التي يورد فيها))[xxxviii] . أما في المعجم البسيط: ((البديع علم يعرف به وجوه تحسين الكلام))[xxxix]، وعن وجوه تحسين الكلم ((التي يبحث فيها علم البديع قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، فهو علم المحسنات اللفظية، والمحسنات المعنوية))[xl].

وعن الغاية من اصطناع مفهوم البديع، في رأي عبد الملك مرتاض إنها ((معرفة الكيفية التي تُفضي إلى تنميق الأسلوب وتحلية الكلام مما يحسنه ويجمّله، فإن ذلك لا يعني لدى نهاية الأمر، إلا بحثا في كيفية بناء الأسلوب الذي يخاطَب به المتلقي، أو ما يمكن أن يطلق عليه "طريقة الأسلبة" وبعبارة

أدق معرفة العناصر التي تكوّن نظرية الأسلوب، وهي النظرية التي أمست تُعرف تحت مصطلح "الأسلوبية" (La stylistique) في اللسانيات))[xli]، وبهذا ينتقل بنا مرتاض من تعريف عام لعلم البديع إلى استنباط علم آخر يعد وثيق الصلة به، هو الأسلوبية، من منطلق كون الأول يهتم بطريقة بناء الأسلوب الموجه للمتلقي. فيرى أن البديع تسلل من حقل البلاغة إلى حقل اللسانيات العامة، تتمثل غايته في دراسة الآثار المترتبة عن اصطناع محسنات كلامية في الأسلوب الذي يختاره أديب معين.

ويعرف مرتاض الأسلوبية من تعريف **شارل بالي** [xlii]لها، من حيث كونها دراسة مظاهر التعبير للغة منتظمة من حيث المضمون الوجداني، أي أنها تجسيد فعل الحساسية بواسطة اللغة، وأثر أفعال اللغة في الحساسية.

وقد نشأت الأسلوبية باعتبارها بلاغة علمية جديدة، في أحضان الشكلانية الروسية والنقد الجديد، وهي دراسة الأسلوب الأدبي وخصائصه ومميزاته، ((فهي تدرس الصور الشعرية، والإيقاع، وقضايا التركيب، وتدرس النظام اللغوي ومكوناته للوصول إلى تحقيق الأثر الجمالي الكامن في النصوص الأدبية وهي في ذلك تستفيد مما قدمته البلاغة والتداولية من إجراءات في فهم طبيعة تشكيل النصوص الأدبية))[xliii]. فالأسلوبية ذات تقاليد بلاغية، تتنازعها اللسانيات طورا والدراسات الأدبية طورا آخر. وهي في نظر الباحثين الغربيين ثلاثة أقسام: أسلوبية لسانية، وأسلوبية أدبية، وأسلوبية عامة، والأدبية منها هي المعنية بتحليل العناصر الأسلوبية التي يفترض أنها خالصة للتقاليد الأدبية.

وتبعا لما سبق نلفي عبد الملك مرتاض يجعل الأسلوبية هي البديع، بقوله: ((وليس البديع في منظورنا إلا ذلك، أو شيئا من ذلك))[xliv]، ويضيف على ذلك بأن يقترح مصطلح "البديعية" كمرادف للأسلوبية ،وإن كنا نسجل تحفظا في اعتماده لسعة وعمق الأسلوبية التي لا تقتصر على محاسن الألفاظ لوحدها وإنما تتعداها لدراسة التراكيب وميزاتها من اختيارات وانزياحات، وكذا دراسة النسق والسياق وغيرها. اللهم إذا كان الباحث يقصد علم البديع الذي كان يطلق على جميع أبواب علم البلاغة من علم البيان و علم المعاني وعلم البديع، ((ويعللون هذا الإطلاق بأن البديع هو الشيء الذي يستحسن لطرفته وغرابته، وعدم وجود مثاله من جنسه، وهذه العلوم كذلك))[xlv]، أي أن البديع يعبر عن جميع تلك المباحث، ولكن الباحث لم يوضح هذا الاعتماد بل جعله مطلقا. لاسيما وأن الجميع يتعارف على أن البديع ما خصّ تحسين الكلام وتنميقه، والدراسة التطبيقية[xlvi] التي أوردها مرتاض في نهاية المبحث، تبين قصده

من البديع، حيث اقتصر على توضيح عبقرية الشاعر أبي تمام الطائي من خلال توضيح ما وظفه في نظم بيته الشعري من ألفاظ بديعة متقابلة ومتشاكلة فيما بينها.

خاتـــــــــــمة:

في نهاية البحث الذي هو في أصله قراءة في فكر عبد الملك مرتاض من خلال كتابه "في نظرية البلاغة-متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا" لاسيما ما تعلق ببحثه عن الميراث البلاغي في السيميائيات المعاصرة، وبالتالي فإن دراستنا تنهج منهج الباحث وتبين توجهه البلاغي بتوضيحاته المنيرة واقتراحاته البديلة لما هو كائن في الساحة النقدية والبلاغية، وتبعا لذلك نسجل النتائج التالية:

1- البلاغة حقل واسع ومجال معرفي غير محدود، تنهل منه جميع النظريات النقدية المعاصرة، وتجد فيه أصولها وإرهاصاتها.

2- تجد ظاهرة الانزياح تواجدا لها منذ القدم عبر ما كان يسمى العدول في البلاغة العربية القديمة، ويقال أنها لم ترق للتنظير لتصبح منهجا قارا له أسسه ومبادئه، ولكن المبدأ واحد والفكرة ذاتها، تتمثل في الخروج عن النمط المألوف في التعبير لفظا وتركيبا نحويا كان أم دلاليا.

3- تعد التداولية أو البراغماتية نظرية شاملة وواسعة، تحوي جميع أطراف العملية التخاطبية بما فيها الباث والمتلقي والرسالة والسياق الذي تدور في إطاره ، وذلك من أجل تبليغ المتلقي على أحسن وجه للمعنى المقصود، وهو ما يشير باختصار إلى نظرية معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني بسعيه لإعمال المتلقي لذهنه، ومحاولة فهمه لما يقال له على الوجه المطلوب ، بتحري المعاني الثواني التي يتضمنها الكلام الظاهر من خلال دلالات السياق أو المقام، ليحصل الفهم والإفهام بين المتكلم والمخاطَب.

4- تهتم الأسلوبية بالأسلوب، لفظا ودلالة، تنميقا وزخرفة، وهي في ذلك تقترب من البلاغة عموما بجميع ميادينها، وليس بالبديع وحده، وإن كان ذا دور فعال في التأثير في المخاطَب باستحضار التذوق الفني، والرنة الموسيقية، والدلالات الدقيقة من المترادفات والمتقابلات التي يُقبل على اعتمادها المتكلم وتوظيفها على مستوى خطابه، للرقي به من المستوى العادي إلى المستوى الأدبي الفني.

5- لابد من إعادة قراءة التراث البلاغي قراءة تمحيصية دقيقة لما ورد فيه من إشارات وامضة يمكن استنباط نظريات مؤسسة منها، ولا ننتظر النظريات النقدية الغربية الجاهزة لنُعيد إسقاطها على ما قدمه المفكرون العرب القدامى، إذ لابد من تغيير المنهج المتبع في البحث، والتشمير على سواعدنا والاتكال على أنفسنا في دراسة أدبنا وتاريخنا وماضينا من منطلق أنفسنا.

الإحـــــــــــــــــالات:

[i] عبد الملك مرتاض، في نظرية البلاغة-متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا، دار القدس العربي، الجزائر، ط2، 2010، ص9.

[ii] المرجع نفسه، ص ص 10، 11

[iii]ينظر المرجع نفسه، ص 146

[iv]ابن الأثير،ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الشيباني الجزري، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق الدكتور بدوي طبانة والدكتور محمد الحوفي، مطابع الفرزدق التجارية، دار الرفاعي للنشر، الرياض 1983م.،ج 2، ص ص193-194

[v] أحمد غالب النوري الخرشة، أسلوبية الانزياح في النص القرآني، رسالة دكتوراه مخطوط، إشراف: زهير المنصور، جامعة مؤتة، 2008، ص 19

[vi] بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، دار المنارة للنشر والتوزيع- جدة، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض، ط3، 1988، ص718

[vii] عبد الملك مرتاض، بين الانزياح والعدول، منتدى القصة العربية، 2014/10/15، موقع:
http://www.arabicstory.net/forum/index.php?showtopic=14860

[viii] ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية البلاغة-متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا، ص ص 145،146

[ix] المرجع نفسه: ص 147

[x] المرجع نفسه، ص 148

[xi]المرجع نفسه، ص149

[xii]ينظر المرجع نفسه، ص 149

[xiii] المرجع نفسه، ص 149

[xiv] ينظر المرجع نفسه، ص 150

[xv] المرجع نفسه، ص 152

[xvi] ينظر المرجع نفسه، ص 144

[xvii] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1992، ص262.

[xviii]عبد الملك مرتاض، في نظرية البلاغة–متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا، ص155.

[xix] المرجع نفسه، ص 155

[xx]المرجع نفسه، ص 156

[xxi] ينظر المرجع نفسه، ص 163

[xxii] المرجع نفسه، ص157

[xxiii] ينظر المرجع نفسه، ص 158.

[xxiv]المرجع نفسه، ص 158

[xxv] المرجع نفسه، ص159

[xxvi] المرجع نفسه، ص160

[xxvii] ينظر المرجع نفسه، ص 160

[xxviii] ينظر المرجع نفسه، ص161

[xxix] المرجع نفسه، ص 166

[xxx] المرجع نفسه، ص 167

[xxxi] المرجع نفسه، ص168

[xxxii] المرجع نفسه، ص169

[xxxiii] ينظر المرجع نفسه، ص 170

[xxxiv] ينظر المرجع نفسه، ص 171

[xxxv]ينظر المرجع نفسه، ص 172

[xxxvi] المرجع نفسه، ص 173

[xxxvii] ينظر المرجع نفسه، ص 173

[xxxviii] المرجع نفسه، ص174

[xxxix] المرجع نفسه، ص 175

[xl] بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، ص 67

[xli] عبد الملك مرتاض، في نظرية البلاغة–متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا، ص176.

[xlii] ينظر المرجع نفسه، ص176

[xliii]سليمان بن سمعون، البلاغة وعلاقتها بالتداولية والأسلوبية وعلم النص، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 17، 2012، ص 49

[xliv] عبد الملك مرتاض، في نظرية البلاغة–متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا، ص177.

[xlv] بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، ص 67

[xlvi] ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية البلاغة–متابعة لجماليات الأسلبة إرسالا واستقبالا، ص178، 179.